مركز روافد
للدراسات والأبحاث في حضارة المغرب وتراث المتوسط
Rawafed center for Studies and Researches
in Maghreb Civilization and Mediterranean Heritage
rawafedcenter.org

محمد عزيز الحبابي

مسار حياة وفكر

إبراهيم مجيديلة
باحث في الفلسفة

قسم الدراسات
03 ماي 2019

جميع الحقوق محفوظة © 2019

تمهيد:

أردنا لهذا العمل أن يندرج في إطار ثقافة الاعتراف بالفيلسوف محمد عزيز الحبابي؛ بوصفه أحد رموز النبوغ الفلسفي في الفضاء الإسلامي والعربي، وبوصفه مفكراً أصيلاً ومجددا ساهم في استئناف القول الفلسفي بالمغرب المعاصر. ففي مشروعه الفكري؛ تآليفه ونصوصه المتنوعة، نجد البذور الأولى التي تم استنباتها في أرض شبه خالية من الفلسفة كتقليد مؤسسي وأكاديمي قائم بذاته. فله يعود فضل البدء من جديد لمواصلة مسيرة من سبق. وإذ نفعل ذلك فإننا نروم إبراز مساهمته في اليقظة الفلسفية المغربية بشكل خاص، وفي الفلسفة العربية المعاصرة بشكل عام.

محمّد عزيز الحبابي: شذرات من هنا وهناك(*)

من هو محمد عزيز الحبابي؟ من هذا السؤال انطلقت الأستاذة فاطمة الجامعي للتعريف بزوجها الفيلسوف محمد عزيز الحبابي. وهو سؤال يخص النظر في الهوية بأبعادها المتعددة، أو يروم تحصيل الوحدة للذات المتعددة الوجوه، التي تتفاعل فيها صورة الإنسان مع صورة المفكر، وتلتقي شخصية الأديب بشخصية الفيلسوف، ويتداخل فيها الشخصاني مع المسلم، ويندمج فيها العالم الشخصي والعالم المجتمعي والعالم الطبيعي. إنه سؤال مُولد لسلسة من الإشكالات التي تتسلل إلى عالم السيرة الذاتية للحبابي ببعديها الحياتي والفكري.

(*)- استعرنا هذا التعبير من الكلمة التي ألقتها الأستاذة فاطمة الجامعي بمناسبة تأبين زوجها محمد عزيز الحبابي من طرف اتحاد كتاب المغرب يومي 8 و9 أكتوبر 1993، والتي نشرت بمجلة (أوراق) العدد: 53- 54، يونيو 1993.

ينطلق تفكيرنا في هوية وسيرة الحبابي من قاعدتين عامتين، نكاد نجدهما في كل الأعمال التي اهتمت بسير العظماء من مفكرين ومصلحين ومبدعين وسياسيين، أو تلك التي اعتنت بسير الفلاسفة بشكل خاص. يمكن أن نعبر عن القاعدة الأولى بالصيغة التي ذكرها ميشال فوكو: «إن كل كتاب من كتبي يمثل جزءا من تاريخي»[1]. فالسيرة الفكرية للفيلسوف لا تنفصل عن سيرته الحياتية، فالأولى صدى للثانية. وكأن السيرة الذاتية اعتراف مفكر فيه، أو أحداث فكرية تعبر في الأصل عن أسئلة مستجدة في فضاء الممكن الفكري[2]، وتقصد فهم الذات والواقع والتاريخ. وأما القاعدة الثانية، فهي أن كل سيرة ذاتية هي في الأصل سيرة جماعية، لأنه من المتعذر جدا أن «نتصور سيرة ذاتية لحياة فرد واحد»[3]. فعندما يكتب كاتب أو فيلسوف أو سياسي، فهو يكتب عن «جيل بأكمله، وعن مرحلة تاريخية بأكملها»[4]. فالذات الفردية تنتمي إلى ذات جماعية، وتتقاسم معها نفس التجربة التاريخية. ويصدق هذا الأمر بوضوح على سيرة الحبابي، التي هي في جزء كبير منها سيرة شعب أو شعوب عانت من الاستعمار وتبعاته.

من المعلوم أن الحبابي لم يكتب سيرته الذاتية في نص جامع، جاد ومكتمل. وبذلك فلم يُشكل بِدعا عما هو سائد في الساحة الفكرية العربية المعاصرة، حيث إن «تقليد كتابة سير الحياة، والسيرة الذاتية واليوميات والمذكرات والاعترافات، لا يزال منطقة محظورة وغريبة»[5]، حتى

(1)- نقلا عن:
الدواي، عبد الرزاق، **الفلاسفة والسيرة الذاتية، في: الثقافة والفلسفة**: دراسات مهداة إلى الأستاذ أحمد السطاتي، تنسيق سالم يفوت، سلسلة ندوات ومناظرات، 74، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997، ص. 129- 140.

(2) - Ricoeur, Paul, **Le mémoire, l'histoire**, l'oubli, Seuil, Paris, 2000, p.556.

(3)- الجابري، محمد عابد، **حفريات في الذاكرة، من بعيد**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1977، ص. 229.

(4)- المرجع السابق، ص. 230.

(5)- الدواي، عبد الرزاق، **محمد عزيز الحبابي مسار في الفكر والحياة**، في: محمد عزيز الحبابي الشخصانية والغدية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، إعداد وتقديم كمال عبد اللطيف، الطبعة الأولى، 2015، ص. 15- 46.

وإن وجدت بعض الاستثناءات القليلة فإنها لا تكسر القاعدة العامة(*). بيد أن ذلك لا يمنع من تشكيل صورة، شبه عامة، على سيرته الحياتية والفكرية. إذ نقدر أن سيرته توجد مبثوثة في كل كتاب من كتبه، وأن مسار حياته يمتد عبر كل نص من نصوصه، كما نقدر أن سيرته الفكرية لا تنفصل عن سيرته الحياتية، حيث إن الأولى هي صدى للثانية. فدرس السيرة الذاتية يُذكرنا دائما بأن «الفلسفة هي حكاية فيلسوف تسردها اعترافات الذات التي تُعبر عن انحكاء الوجود في اللغة»(6). وكما سجل بول ريكور، فإن السرد، هو البنية الأساسية في تجربة الزمن التي هي سند وشرط السيرة الذاتية(7).

والمقصود بالسرد، هنا، البناء وفق تأويل منظم للأحداث والوقائع، وليس مجرد حكي(8). فلابد من إعادة تنظيم تجربة الزمن وفق منظور يُسهم في كتابة السيرة الذاتية للفيلسوف، أو على الأقل إعطاء صورة شبه عامة على مسار حياته وفكره. ولسنا ندعي هنا كتابة سيرة الحبابي كتابة منهجية وافية، لأن ذلك يحتاج إلى عمل مستقل، وإنما نروم الوقوف عند معالمها الكبرى وإشاراتها الهادية لفهم بعض جوانب حياته وفكره.

(*)- من النماذج القليلة للسير الذاتية التي ألفها مفكرون عرب معاصرون، نجد: عبد الرحمان بدوي «**سيرة حياتي**» المنشورة في سنة 2000، ومحمد عابد الجابري «**حفريات في الذاكرة، من بعيد**» المنشورة في سنة 1997.

(6)- الورفلي، حاتم، الذات عين الآخر: هوية التجاوز والتجاور، ضمن، **بول ريكوروالفلسفة**، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2013، ص. 41.

(7) - Ricoeur, Paul, **Temps et récit, L'intrigue et le récit historique**, tome 1, Seuil, Paris, 1983, p. 17.

(8)- جوناثان، ري، **السرد والتجربة الفلسفية، في: الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور**، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1999، ص. 113- 128.

في مناسبات قليلة أغلبها ذات طابع احتفالي، نشرت أو قدمت أوراق اهتمت ببعض جوانب السيرة الذاتية للحبابي(**)، نخص بالذكر هنا التأبين الذي أقامه اتحاد كتاب المغرب للراحل يومي ثامن وتاسع أكتوبر 1993. وعلى أهمية تلك الأوراق المقدمة، فإنها لا ترقى إلى مستوى المصادر الأساسية التي يمكن الاعتماد عليها لتدوين سيرة الفيلسوف الحبابي، لأنها في أغلبها كانت عاطفية وانفعالية، كما أن المناسبة التي ألقيت فيها لم تكن ذات صبغة أكاديمية.

في دراسة عن المسار الحياتي والفكري للحبابي(*)، أشار عبد الرزاق الدواي إلى مصدرين كمرجعين لبناء سيرة ذاتية له. يتمثل الأول في ورقة أعدها الحبابي نفسه تحت عنوان: «فلاسفة ينتقدون أنفسهم»، أنجزها بمناسبة المشاركة في أشغال الندوة التي نظمتها «الفيدرالية العالمية للجمعيات الفلسفية» بالنمسا، في صيف 1982. وأما الثاني، فيتمثل في ورقة تعريفية أعدتها زوجته فاطمة الجامعي تحت عنوان: «من هو محمد عزيز الحبابي؟»، ونُشرت في كتاب جماعي: «مدخل إلى أعمال محمد عزيز الحبابي الأدبية والفلسفية»، سنة 1986. والظاهر أن هذين المصدرين متكاملان، بحيث إن الأول يهتم بالمسار الفكري للحبابي، في حين أن الثاني يهتم بمسار حياته.

(**)- نقصد هنا الكلمات التي ألقيت بمناسبة تأبين محمد عزيز الحبابي من طرف اتحاد كتاب المغرب يومي 8 و9 أكتوبر 1993. من بين أهم المساهمين نجد محمد المصباحي: «الحبابي ذلك المفكر الباحث عن الأسئلة والأسماء» ص. 377- 380. محمد وقيدي: «الفيلسوف بيننا من غيابه إلى حضوره» ص. 381- 384. كما ساهمت زوجته فاطمة الجامعي بكلمة: «شذرات من هنا وهناك» ص. 389- 398، وساهم عبد الرزاق الدواي بورقة بحثية تحت عنوان: «عن الإنسان والزمان في فلسفة محمد عزيز الحبابي» ص. 369- 378. ولقد نشرت كل الكلمات والدراسات **بمجلة آفاق**، العدد رقم: 53- 54 بتاريخ 1يونيو1993.

(*)- نُشرت هذه الدراسة في كتاب جماعي أصدره المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات سنة 2015، في إطار التعريف والاعتراف بالفيلسوف محمد عزيز الحبابي. وهو مرجع سابق.

في دراسة زوجته فاطمة الجامعي، التي أشرنا إليها سابقا، نقف على ذكر ثلاثة مصادر أخرى يمكن اعتمادها كمراجع لرسم المسار الفكري للحبابي[9]. وهي: الكتاب التكريمي لمحمد عزيز الحبابي، الذي يضم مجموعة دراسات أنجزها أساتذة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس الرباط. ثم المهرجان التكريمي للحبابي المنظم من طرف اتحاد الكتاب بالمغرب. وأخيرا دراسة بالفرنسية[**] تحت عنوان: «Lahbabi, une voix sonore» للباحثين: B. Jourdan و P. Monestrau.

واعتمادا على تلك الدراسات المشار إليها، سنعمل على رسم صورة عامة للسيرة الذاتية للحبابي، أو مسار حياته وفكره، قاصدين الوقوف على العوامل الاجتماعية والسياسية والفكرية التي دفعت فيلسوفنا لاختيار الفلسفة الشخصانية دون غيرها من الفلسفات، والتي جعلت فلسفته فلسفة للإنسان أو نزعة إنسانية. وإذ نفعل ذلك، فإننا نراهن على إدراك الصلة الجامعة بين حياته وفكره، وبين فلسفته والواقع. ثم على سبر أغوار العلاقة الحميمية بين الإنسان والفيلسوف في شخص الحبابي.

مسار حياة وفكر:

وُلد الفيلسوف محمد عزيز الحبابي سنة 1922، ونشأ يتيما، بعد وفاة أمه، في وسط عائلي مثقف وعالم، وتوفي سنة 1993. تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي بالعاصمة العلمية للمغرب: مدينة

(9)- الجامعي، فاطمة، من هو محمد عزيز الحبابي؟، في: **مدخل إلى أعمال محمد عزيز الحبابي الأدبية والفلسفية**، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1986، ص 7-15.

(**)- هذه الدراسة لم نعثر لها على أثر.

فاس[10]. في مرحلة شبابه، انخرط في صفوف الحركة الوطنية مناضلا ضد الاستعمار الفرنسي، مما تسبب في سجنه[*] وتعذيبه[**]، وثم طرده من المعاهد التعليمية. وبعدها سافر إلى باريس لمتابعة دراسته في الفلسفة التي اختارها دون غيرها من التخصصات[***]، والتي توجها بحصوله على الدكتوراه سنة 1954، تحت عنوان: «من الكائن إلى الشخص: دراسات في الشخصانية الواقعية»، والتي تعد أول أطروحة في الفلسفة يناقشها طالب مغاربي[11]. وإلى جانب هذا السبق المغاربي، يُصنف الحبابي في دائرة أهم الفلاسفة الأفارقة المعاصرين[12]، إلى جانب كل من الرئيس سيدار سنغور (Sedar Senghor) والشيخ أنتا ديوب (Anta Diop)، على اعتبار أنه أسس مذهبه الخاص، وأبدع مفاهيمه التي تستند إليها رؤاه وتصوراته، وصاغ أطروحات ذات أفق كوني تخص الإنسان والحرية، أو ساهم في تأسيس الأنثروبولوجية الفلسفية الإسلامية المنفتحة على الإنسانية في شموليتها[13].

(10)- الجامعي، فاطمة، من هو محمد عزيز الحبابي؟، مرجع سابق، ص. 9.

(*)- يقول الحبابي بخصوص هذه الأزمة: «في يناير من سنة 1944، حُكم على محمد عزيز الحبابي ب 30 شهرا من السجن، لمشاركته في الحركة الوطنية المناهضة للاستعمار من أجل الاستقلال. انتقل بين السجون المدنية والعسكرية، وعانى من آلام المنفى، وتلقى ضربة على الجمجمة مما تسبب له مضاعفات صحية فيما بعد...، استعاد حريته بعد ثمانية أشهر، وفر إلى فرنسا» عن كتاب: «**محمد عزيز الحبابي، الإنسان والأعمال**، الجزء 2، مرجع سابق، ص. 169».

(**) - تبعا لشهادة زوجته، فاطمة الجامعي، بفعل التعذيب الذي تعرض له من طرف جنود الاحتلال الفرنسي سنة 1944، خضع لعمليتين جراحيتين، وأزيح له قسم الغدة النخاعية، مما جعله ضعيف البنية ويعاني نظاما في الحياة جد متعب. عن كتاب: «**مدخل إلى أعمال محمد عزيز الحبابي الأدبية والفلسفية**، مرجع سابق، ص.11».

(***)- نشير إلى أن الحبابي حصل على إجازتين: الأولى في الفلسفة، والثانية في الفيزياء.

(11)- Lahbabi, Mohamed Aziz, **Doctrines et Concepts: cinquante ans de philosophie de langue française, dans, Faces et Préfaces**, éditions Okad, 1991, p43-59.

(12)-Wiredu, Kwasi, **A Companion to African Philosophy**, Blackwell Publishing, Australia, 2004, p 169-170.

(13)- Campbell, Iman, **science-fiction and social criticism in Morocco of the 1970s: Muhammad Aziz Lahbabi's the Elixir of life**, Science Fiction Studies, num 125 Volume 42 Part 1, March 2015.

هناك تجربتان مهمتان أثرتا في حياة الحبابي، ومن بعد في اختياراته الفلسفية وإبداعاته الأدبية: تجربة اليتم وتجربة الاستعمار. بخصوص التجربة الأولى، فقد شكل موت الأم حدثاً مأساوياً قاسيّاً في حياة الحبابي، وربما جاز لنا أن نعتبره ذلك المنبع الدفين للقلق والتوتر الذي اخترق كل كتاباته المختلفة: الفلسفة والشعر والرواية[14]. ولئن كان ترحاله بين أنماط الكتابة والتأليف المتنوعة مسكوناً دائما بهاجس نفسي، فإنه يظهر بقوة في مجال الرواية[**]، وخاصة في روايته: «**جيل الظمأ**» المنشورة سنة 1967، التي تشكل فيها شخصية الطفل لغزاً محركاً لأحداثها[15]. وكقاعدة عامة فإن مرحلة الطفولة، من منظور التحليل النفسي، تمثل المرحلة الأهم في حياة الإنسان، حيث تتكون فيها البنيات الأساسية للحياة النفسية التي تشرط كل مسار حياته، وتوجه نظرته لذاته وللآخرين والعالم.

ينضاف إلى تجربة اليتم أو فقدان الأم، تجربة أشد قسوة وعنفاً، حيث إنها لم تقف عند حدود العالم الشخصي للحبابي، بل طالت كل واقعه المجتمعي. تتجلى في الاستعمار الذي يصفه فيلسوفنا بالشر الجذري[16]، المشوه للغة الشعوب وتاريخها، والمفكك لكينونتها[17]. فالمستعمر، حتى تتهيأ له ظروف وأسباب الهيمنة والسيطرة، لم يتوان على اجتثاث الأصول الثقافية للشعوب

(14)- الدواي، عبد الرزاق، **محمد عزيز الحبابي مسار في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص. 21.

(****)- عالج هذه الفكرة الناقد أحمد اليابوري في دراسة جامعية بعنوان: «**جيل الظمأ رواية وثائقية**»، أنجزها تحت إشراف محمد عزيز الحبابي، سنة 1967.

(15)- يقول الحبابي معبرا عن تلك الفكرة: «إنه حياة الألغاز، فالطفل، أي طفل، كل قائم بذاته، وهو في الوقت نفسه، لا شيء بدون الآخرين، هنا نحس بغلاظة لغز الإنسان وكثافته. إن اللغز منا، وخارجا عنا، يمر في كل شيء، ولا يوجد لغز أو سر في أي مكان». عن رواية: «الحبابي، محمد عزيز، **جيل الظمأ**، المكتبة العصرية، بيروت، 1967، ص. 58»

(16)- الحبابي، محمد عزيز، **الإنسان والأعمال**، الجزء الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991، ص. 173.

(17)- المرجع السابق، ص. 167.

الأصلية، من أجل تدمير كل عناصر المقاومة، وتأبيد إخضاعها لغروره العنصري. فالاستعمار سلاح خطير، يفتك بالإنسانية؛ لأنه يعوق تطور ثقافة المستعمَرين، ويعمل جاهداً على جعلهم ينسون تراثهم القومي، ويحول بينهم وبين المساهمة في الحضارة الإنسانية.

اليتم والاستعمار والسجن والنفي، أحداث مؤلمة جسدياً ونفسياً، أثرت في مسار حياة وفكر الحبابي. ومن خلالها اكتشف نفسه كمشكلة فلسفية[18]، بوصفه كذات وكعالم ثالثي. وفرضت عليه الانتقال من المأساة إلى خيبة الأمل[19]، ومن الخيبة إلى الفلسفة[20]. أو بمعنى آخر، فإن الطريق الذي كان يقطعه الحبابي، ذهاباً وإياباً، من السياسة إلى الفلسفة[21]، ثم من الفلسفة إلى السياسة[22]، مسكونٌ بالمعاناة والألم. لعل هذا ما دفعه إلى اختيار فلسفة في مستوى المشاكل التي يعيشها مجتمعه، أو يعيشها «إنسان» العالم الثالثي، فلسفة تجعله ينسجم مع التزامه اتجاه ضميره وشعبه، وتندمج في التاريخ، وتلتصق بالواقع، وتلتحم بالإنسان في كليته وكونيته. وفي كتبه ونصوصه نجد دليلاً على ذلك؛ فقد كان ينفر من كل الفلسفات التي لا تعلم إلا الانسلاخ عن العالم، حيث يتستر الفلاسفة وراء المعاني المجردة، والمثل العليا، والحقيقة الخالدة، رافضين الاندماج في التاريخ[23]. ولهذا رفض ما وجد أمامه من مثالية سالبة للواقع، ومن تشاؤم وعبث،

(18)- الحبابي، محمد عزيز، **الإنسان والأعمال**، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 174.

(19)- المرجع السابق، ص. 169.

(20)- المرجع السابق، ص. 176.

(21)- الدواي، عبد الرزاق، **محمد عزيز الحبابي مسار في الفكر والحياة**، مرجع سابق، ص. 2.

(22)- المرجع السابق، ص. 31.

(23)- الحبابي، محمد عزيز، **الإنسان والأعمال**، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 173.

ومن خيال وتجريد(*)، باحثاً عن فلسفة تعزز عنده المكتسب الفكري الإنساني بقيمه وعلاقاتها ورهاناته.

لقد أدرك الحبابي نفسَه كمشكلة فلسفية بأبعادها الأنطولوجية والإنسانية والأخلاقية. فكينونته مستلبة بفعل الاستعمار، وشعبه فاقد لإمكانات الفعل الحر، ولشروط اتخاذ القرار وممارسة النقد. فهو فرد من تلك الشعوب المُستعمرة التي تكون «مدفوعة للعمل، وهي محرومة من المتعة والرغبة في الفعل. فبقدر ما تتحرك، بقدر ما تدعم الدول التي تضطهدها، وتعمل على حرمانها»(24). وأنه كائن غير مرتب في القرن، ولا ينتمي إلى الحضارة الصناعية، فلا يعدو أن يكون كائناً خاماً أقرب إلى (الحيوان) منه إلى (الإنسان الأبيض) الغربي المتحضر. يوجد مفترق الطرق «بين - بين»، لا هو غربي ولا هو شرقي، منفصل عن ماضيه دون أن يكون قادراً على الاندماج في حاضر الآخرين، أو مالكاً لتصور للمستقبل. كينونته فارغة، ووجوده ناقص.

فهذا القلق الوجودي والواقعي هو ما شغل تفكير الحبابي عند إنجازه لأطروحة الدكتوراه «من الكائن إلى الشخص» سنة 1954، وبما أنه كان مستعمرا يعاني الذل والهوان في جسمه وروحه، فقد حضر أطروحته التكميلية حول موضوع الحرية تحت عنوان: «أحريات أم تحرر» سنة 1956. كما أن انشغاله بسؤال الهوية، دفعه في مستوى أول، انطلاقاً من موقعه العقائدي

(*)- يقول الحبابي واصفا الصورة العامة للفلسفة الغربية كما عاينها في فرنسا: «هل الفلسفة الغربية كانت تقتصر على طرح شبه أسئلة حول الكائن، الذي بإمكانه أن يكون أو لا يكون، وتأملات حول المعنى المجرد للحياة؟ لم يكن أمام الفلسفة الغربية إلا معرفة ما إذا كانت العبثية عبثا، في عالم محطم» عن كتاب: «الحبابي، محمد عزيز، **الإنسان والأعمال**، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 172». من هنا يظهر رفض الحبابي لأغلب الفلسفات التي كانت تهيمن على الساحة الفكرية بفرنسا متجها صوب فلسفة أكثر التصاقا بالإنسان وبواقعه، وهذا ما وجده في الشخصانية التي عمل على التجديد من داخلها مُبدعا شخصانيته الواقعية.

(24)- الحبابي، محمد عزيز، **الإنسان والأعمال**، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 174.

والثقافي، إلى كتابة كتابه المنشور بعنوان: «**الشخصانية الإسلامية**»، وفي مستوى ثان، انطلاقاً من موقعه الثالثي، ألف كتابه: «**عالم الغد: العالم الثالث يتهم**» سنة 1981.

عبر المسار الفكري للحبابي، الذي لا ينفصل عن حياته، شكلت الشخصانية الأرض الخصبة التي اعتمدها كنقطة ارتكاز لتأملاته ومشاهداته، وكنظرية إنسانية وأخلاقية يتوحد فيها الفردي والكلي، كأفق بديل لأزمة القيم الغربية النابعة من مركزيته حول ذاته وتهميشه لباقي الذوات، نحو فلسفة إنسانية واقعية تعيد الاعتبار للإنسان، في كليته وكونيته، بصرف النظر عن اعتبارات التاريخ والعرق واللون[25]، وتتجاوز قصور المثالية والمادية معا. هكذا فإن الشخصانية الواقعية والشخصانية الإسلامية والشخصانية الإفريقية والغدية تنتظم كلها في إطار رؤية أنطولوجية إنسانية وأخلاقية جامعة، تجعل من الإنسان المقولة العليا للفكر والعمل، وتعمل على بعث النزعة الإنسانية من جديد على أسس عقائدية وفلسفية وثقافية مغايرة لما فرضته الحضارة المادية.

دلالة الفلسفة:

يواجه المشتغل بصناعة الفلسفة مشكلة منهجية ومعرفية في تعريف صناعته. فالفلسفة التي تسعى إلى تعريف كل شيء وإخراجه من حالة الغموض والإبهام، إلى حالة الوضوح والإيضاح، وتروم تحقيق درجة أعلى من الضبط الدلالي لمفاهيمها، فإنها تجد صعوبة في تعريف ذاتها. ولهذا نلفي الفلاسفة، وهم يفكرون ويتفلسفون، مسكونين بهاجس بناء تعريف واضح ومضبوط للفلسفة.

(25)- المرسلي، عبد الحميد، مستويات الغدية، في: محمد عزيز الحبابي **الإنسان والأعمال**، الجزء الثاني، مرجع سابق، ص. 222.

يكشف تاريخ الفلسفة عن تعدد تعريفاتها، فلا نكاد نعثر على تعريف واحد ووحيد متواضع عليه بين جميع الفلاسفة. كما أن كل فيلسوف يعمل، بشكل صريح أو ضمني، على تعريف الفلسفة، أو على الأصح على تعريف فلسفته الخاصة. كما يصح القول إن كيفية ممارسة الفيلسوف لفعل التفلسف تكشف لنا رؤيته للفلسفة والمهمة التي ينتظرها منها. والظاهر أن اتفاق الفلاسفة لا يحصل إلا على أشياء ضئيلة، وأن تاريخ الفلسفة عرف «صراعات حول المعاني التي تُعطى للمفاهيم، وحول المبادئ الصورية. وإذا كانت الفلسفة حكمة دائما فتعاريفها ووسائلها كانت هي أيضا نسبية»[26].

بكل تأكيد، فإن الحبابي انشغل كثيراً بالتعريف بفلسفته، وخاصة عندما نستحضر جهده التأسيسي للتقاليد الفلسفية بالجامعة المغربية ما بعد الاستقلال. وعندما نستحضر هذا المعطى يصير لزاماً أن نفهم فلسفته أو اختياره الانتماء إلى تقليد فلسفي بعينه في علاقة بواقعه وعصره، لهذا نجده يربط بين الفلسفة والحياة. فالفلسفة بالنسبة إليه «أسلوب للحياة والحديث، فلا أحد يُخلق فيلسوفاً، وإنما يتفلسف وهو يمارس الحياة»[27]. كما أن الفلسفة ليست ملكة طبيعية، ولا التفلسف فطرة، وإنما هي صناعة تُكتسب، وفن يُعاش. فهي بيداغوجيا للحياة، ولكل الأعمار[28]، تعلمنا كيف نحيا وكيف نتواصل، فمن الواقع تتشكل، وفيه تفعل. فلا يمكن اعتبارها معرفة

(26)- الحبابي، محمد عزيز، **الإنسان والأعمال**، الجزء الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991، ص. 168.

(27)- الحبابي، محمد عزيز، **عالم الغد: العالم الثالث يتهم (مدخل إلى الغدية)** ، نقلته عن الفرنسية فاطمة الجامعي الحبابي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1991، ص. 162.

(28)- Lahbabi, Mohamed Aziz, Faces et Prefaces, éditions Okad, Rabat, 1991, p .68.

مجردة تقف عند التأمل الخالص والقول المجرد، بل هي معرفة عملية، أو فلسفة للفعل(*). وانطلاقا من قناعة راسخة، فإن الحبابي يدفع بموقفه من الفلسفة إلى الحدود القصوى معتبرا إياها ضرورة للحياة كضرورة الأكل للجسد(29). إنها تعطينا أسباب مقنعة الحياة، وتؤسس الحياة على أسباب معقولة(30).

حقا، إن الحبابي، كغيره من الفلاسفة والمشتغلين بالفلسفة، عمل على بناء تعريف لمفهوم الفلسفة. وإذ يفعل ذلك فإنه يربط الفلسفة بالحياة والواقع، ثم يسير في اتجاهين متداخلين، الواحد منهما يكمل الآخر ويغذيه، اتجاه تحديد مهمة الفلسفة واتجاه تبيان دور الفيلسوف. ويبقى القصد الأمثل لجهده النظري هو التعريف بالفلسفة الشخصانية وابراز عناصر الجدة والأصالة في شخصانيته الواقعية.

في البدء يصح القول: إن فلسفة الحبابي هي نتاج تأمل وتنظير وتجربة، صدرت عن تأملات ومشاهدات وتجارب تختص بالإنسان وبالواقع بكل أبعاده ومفرداته، وعن قراءات نقدية وتساؤلية للأفكار والأحداث والوقائع. يمتزج فيها النظر بالعمل، والقول بالفعل، وتجعل من الإنسان رهانها الحقيقي.

(*) - تجد هذه الرؤية سندها في شخصانية الحبابي التي توصف بالواقعية، والتي تعني الارتباط بالواقع الفعلي للأشخاص والمجتمعات. ثم الاستفادة من عطاءات ونتائج العلوم الإنسانية بالشكل الذي ينقذها من السقوط في التقوقع والتجريد، ويمنحها القدرة على الانكباب على قضايا الإنسان المستعصية والالتزام بحلها.

(29)- Lahbabi, Mohamed Aziz, **Faces et Préfaces** , Op.cit, p. 66.

(30)- Ibid, p .69.

مهمة الفلسفة:

ينتظر الحبابي من الفلسفة النهوض بعدة أدوار تتجه كلها لدعم الكائن البشري وخلق الشروط العامة لتشخصنه وتحرره. ولهذا نجده، يؤكد مرارا، أن التفلسف لذات التفلسف، ليس أمراً جميلاً، لأنه غير نافع للإنسان. ففي سياق قراءته التأويلية لفلسفة الفارابي، يذهب إلى القول جازما: «إن الفلسفة الحق منظومة تأمل يتوصل بها الإنسان إلى تحصيل الجميل. إنها غائية، هدفها الأسمى مصلحة البشر»[31]. فهو يجعل من الفلسفة تفكيراً غائياً، وتتجلى الصورة الأسمى لهذه الغائية في كونها إنسية؛ لأنها تجعل من الإنسان محور التفكير، وتسخر كل الأشياء والموجودات لسعادته. وهي إذ تفعل ذلك، فإنها تنتشلنا من الوقوع في وحل الفكر الدوغمائي المدعي لامتلاك الحقيقة، وتنقذنا من الفكر المطلق، وتحمينا من مختلف الفكرولوجيات التي تتعارض مع الإنسان، أو تعتبره مجرد وسيلة لتحقيق غايات تتجاوزه. فدورها، بما هي فكر نقدي، أن تزرع فينا أو تغرس في تفكيرنا وسلوكنا معنى النسبية، وأن تقف بالمرصاد أمام كل الفلسفات والأنساق الفكرية التي لا تكف على أن «تجتر خريرا وثوقيا لاعتقادها أنها تمتلك المطلق، وتدخل باسم المطلق في حرب ضد قيم الآخرين وأفكارهم، مما يُفضي بها إلى الانهيار. فكل نظام يقوم على عدم التسامح ينتهي دائما بافتراس ذويه»[32].

يحتمل اعتبار دور الفلسفة هو تحقيق النسبية دلالات عديدة. فمن ناحية أولى، إن الحبابي ينسب إلى فلسفته طابع النسبية ويقر بمحدوديتها، كما ينظر إلى باقي الفلسفات بنفس المنظار،

(31) - الحبابي، محمد عزيز، **ورقات عن فلسفات إسلامية**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988، ص. ص. 23 - 24.

(32)- الحبابي، محمد عزيز، **عالم الغد**، مرجع سابق، ص. 169.

وهذا ما يفسر حواره النقدي معها. ومن ناحية ثانية، فعندما يضفي الحبابي طابع النسبية على الفلسفة، فهو ينتصر لقيم التسامح والإيمان بالاختلاف والاعتراف بالمغاير. وإذ يفعل ذلك فإنه يتوخى التأكيد أن الفلسفة منجز كوني يتجاوز الحدود والاختلافات، ويلتحم بالإنسان في تنوعه وتعدده، ويضيء وجوده، ويوجه فاعليته في الواقع، ويصاحب خطوات تقدمه على مسرح التاريخ.

إن الإقرار بالمظاهر المتعددة للتقدم، والتي لا يمكن نكرانها، لا يلغي وجود علامات دالة على إفلاس الحضارة الإنسانية من بعض جوانبها. وإن تعددت أسباب الإفلاس الحضاري، وتشعبت المسالك المؤدية إليه، فإن الفلسفة تتحمل جزءاً كبيراً من المسؤولية؛ لأنها «لم تضطلع بمهمتها كأداة دينامية للتواصل بين القوة الثقافية التي تعيش في ثورة متصلة، وبين القوة الأخلاقية الجامدة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة»[33]. فعندما تخلت الفلسفة عن رسالتها كحكمة ملتزمة ومكافحة، وأصبحت «مسالمة تتحاشى إثارة الزوابع والاصطدامات، متجنبة كل خطر»[34]، حين أضحت، عن قصد أو عن غير قصد، مبررة للظلم والطغيان، واتخذت طابعا إيديولوجيا أو فكرولوجيا تبريريا قريبا من الصورة الاستعارية التي قدمها كارل ماركس للإيديولوجيا حين شبهها بالعلبة السوداء في آلة التصوير؛ إذ تعمل على قلب الحقائق وتزييف الواقع، فإنها تتخلى عن مهمتها الطلائعية، وتفقد القدرة على حفظ التوازن بين المبادئ الأخلاقية والمنجزات المادية، وعلى الوصل بين القوة الأخلاقية والقوة الثقافية. فتنازل الفلسفة عن بعدها الطليعي الخلاق، وتنازلها عن مهامها الطبيعية، جعلها ذيلا تابعا للأنظمة السياسية والاقتصادية القائمة. وفي هذه الحالة

(33) - محمد عزيز الحبابي، **من المنغلق إلى المنفتح، عشرون حديثا عن الثقافات القومية والحضارة الإنسانية**، ترجمه عن الفرنسية محمد برادة، مكتبة الانجلو مصرية، الطبعة الثانية، 1973، ص. 57.

(34)- محمد عزيز الحبابي، **من المنغلق إلى المنفتح**، مرجع سابق، ص. 58.

تصدق عليها تلك الصورة التي وردت في الكتاب المقدس المتعلقة بمحاولة «إسقاط أنياب الأسد بالمسح على ظهره باليد»[35]. ومتى لم تُسهم الفلسفة في إثراء الثقافة، وفي الحوار بين الأجيال، وفي التواصل بين الشعوب، وفي نقد الواقع القائم استشرافاً للأفضل، فإنها «إما أن تكون تافهة، وإما رجعية، تعاكس تقدم الفكر وتحرره، أي تهدم القاعدة التي عليها يبنى كل تقدم وكل تحرر»[36].

عندما تنكرت الفلسفة لطبيعتها، وتخلت عن وظيفتها، فإنها لم «تعد رقيبا وشاهدا منيرا للجهد من أجل التلاؤم والإصلاح والتفكير القويم، كما أنها لم تعد مجهوداً للتحليلات الكاشفة للأوضاع وتدعيم القيم، بل باتت تتنكر لوظيفتها الأساسية، فانغمست في الشعوذة، وأكثرت من الأصباغ فوق وجهها لتلمع في الأضواء الاصطناعية، وكأنها مومس أمام مرآة مشوهة»[37]. فحتى تبقى الفلسفة فلسفة، وتحافظ على هويتها «يجب عليها أن تبلغ ما هو إنساني، وأن تعبر عنه»[38].

يكشف نقد الحبابي للفلسفة عن صورتين[39]: صورة مومس أمام مرآة مشوهة تعمل على تلميع وجهها بالإكثار من الأصباغ، وصورة سيدة مواطنة ذات مستوى مرموق، تتعالى عن واقعها. ومن خلال هاتين الصورتين، فإن الفلسفة تظهر مفارقة لواقعها أو مزيفة له، فهي تعمل على تزويره أو تلميعه بالأصباغ، وفي كلتا الحالتين، فإنها تتخلى عن وظيفتها الطلائعية؛ نقداً للواقع،

(35)- محمد عزيز الحبابي، **من المنغلق إلى المنفتح**، مرجع سابق، ص. 58.

(36) - الحبابي، محمد عزيز، **ورقات عن فلسفات إسلامية**، مرجع سابق، ص. 43.

(37)- المرجع السابق، ص. 58.

(38)- الحبابي، محمد عزيز، **من الحريات إلى التحرر**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2014، ص. 69.

(39)- المرجع السابق، ص. 58.

واستشكالاً له، وتعريةً لأوهامه، وتقويماً لأخطائه، وتنصرف عن تحقيق مقاصدها الكبرى كحكمة إنسانية.

لا يقصد الحبابي من نقده للفلسفة الدعوة إلى التخلي عنها أو إعلان نهايتها، بقدرما يريد استنهاضها ونفخ الروح فيها حتى تضطلع بمهامها. فتقويم الاعوجاج الذي أصاب الحضارة الإنسانية وإنقاذها من الإفلاس وإخراجها من حالات اليأس والقلق والاغتراب، هو رهان يتحقق متى كانت الفلسفة كحكمة قادرة على إصلاح الأعطاب وترميم التمزقات التي أصابت منظومات القيم الأخلاقية والثقافية. ولن يتم لها ذلك حتى تستعيد وظيفتها النقدية وشكها القبلي، وتعلن عن استقلاليتها عن كل الأنظمة السياسية والاقتصادية القائمة. فليست الفلسفة أذكاراً للتعبد، ولا طلاسمَ للسحر والتسلية، بل أساليب يُحاول بها الفكر أن يفهم أسرار الظاهرات والكائنات الطبيعية، فيُخضعها أكثر ما يمكن لسيطرة الإنسانية[40].

ينسب الحبابي للفلسفة دوراً مركزياً، يتجلى في زرع معنى النسبية بما تعنيه من عدم امتلاك الحقيقة ومحدودية الأفكار والتصورات التي يدعو إليها الفلاسفة، فالأفكار والتصورات مهما بدت مقنعة ومبنية بكيفية حجاجية، فإنها لا تمتلك الصلاحية المطلقة. إنه يعلن عن إدانته الصريحة للعديد من الفلسفات التي تتحول إلى ركام من الشعارات والخطابات التي تنفصل عن الواقع كليا، وتنشغل بإشكالات فارغة ولا تلتف إلى الإنسان. فكما أشار الجابري أن «مهمة الفلسفة اليوم هي خلق المفاهيم، غير أن الخلق - في نظر الفلسفة نفسها - لا يكون من عدم، وإنما يكون من شيء ما. إن الأمر يتعلق في الحقيقة بإعادة بعث الحياة في المفاهيم السائدة بعد فحصها

(40)- الحبابي، محمد عزيز، **ورقات عن فلسفات إسلامية**، مرجع سابق، ص. 7.

ونقدها...، وأيضا تحليل ونقد مفاهيم طارئة يقذف بها إلى الساحة الفكر السياسي الراهن، فكر الوقت، المؤقت، بدون شك»[41]. فليس القصد من بناء المفاهيم التحليق بعيداً عن الواقع أو الانفصال عن الراهن، بل هو إنشاء عُدة نظرية تتصل بالإنسان، وبواقعه، وبزمانه. ومن هنا يمكننا أن نصفها بفلسفة الفعل. ولعل هذا ما عناه الحبابي عندما نفى أن تكون الفلسفة ملكة أو هبة تخلق مع الشخص كي يكون فيلسوفاً، فلا أحد يولد فيلسوفاً، وإنما يصير كذلك بتعلم التفلسف وهو يمارس الحياة، ويواجه الواقع. فالفلسفة هي أسلوب للحياة والحديث[42]، يتجسدان في شخصية الفيلسوف.

دور الفيلسوف:

عندما يُذكر اسم الفيلسوف تتداعى إلى أذهان الكثير من الناس العديدُ من الأحكام القبلية والتمثلات الجاهزة، تشترك في رسم صورة غرائبية أو عجائبية له. تجعل منه كائناً غريب الأطوار، ومتقلب المزاج، ومغال في التعقيد، كلامه وتصرفاته وتأملاته مثيرة للريبة ودافعة للحيرة. وتزداد قتامة الصورة في مجتمعات خالية الذهن من كل تفكير فلسفي، أو مُشبعة بتقاليد وعادات تعادي الفلسفة أو تنظر إليها نظرة احتقار وتبخيس.

وإن فيلسوفنا، الحبابي، نشأ في مثل هذا المناخ، أو قريباً منه. وبشكل عام، فإنه نشأ في مجتمع خاضع للاستعمار، وما يستتبعه من أشكال التخلف على كافة الأصعدة. بيد أن ذلك لم

(41) - الجابري، محمد عابد، **قضايا في الفكر العربي المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 2003، ص. 11.

(42)- الحبابي، محمد عزيز، **عالم الغد: العالم الثالث يتهم، مدخل إلى الغدية**، نقلته عن الفرنسية فاطمة الجامعي الحبابي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1991، ص. 161.

يمنعه من استئناف القول الفلسفي بالمغرب، أو تأسيس الفلسفة كتقليد جامعي ومؤسسي. وحين كان يقوم بذلك، فإنه كان يرسم صورة الفيلسوف؛ انطلاقا من الأدوار التي ينبغي عليه الاضطلاع بها.

في المتن الفكري للحبابي، بشقيه الفلسفي والأدبي، نجد لديه اهتماماً كبيراً برسم صورة حقيقية للفيلسوف، أو للفيلسوف الحق كما يسميه. ولو أردنا أن نخصص القول تكفي الإشارة إلى ورقاته عن فلسفات إسلامية، التي أعملَ فيها نظرَه وتأمله في أهم أعمدة الفلسفة الإسلامية؛ الفارابي، الغزالي، ابن طفيل، ابن رشد. ومن خلال تأويله لأعمالهم، رسم ملامح تلك الصورة المتوخاة للفيلسوف(**)، التي يتداخل فيها النظري والسلوكي، الفكري والأخلاقي.

يعرف الحبابي الفيلسوف انطلاقاً من المهمة التي تنتظره، فهو «يؤمن بفعالية الشهادة والانتصار النهائي للعقل السليم والحقيقة، يتدخل عملياً في شؤون الحياة. ذلك أن الفيلسوف، في عالم المصالح المتعارضة والمبررة باحترام وبأدلة متناقضة، يمكن أن يحسم، فيحكم لصالح هذا الفريق أو ذاك»[43]. إنه يحطم تلك الصورة النمطية التي تشكلت عن الفيلسوف بوصفه ذلك المتوحد أو المنفصل عن واقعه وجدانياً وعقلياً، حتى وإن كان يقيم فيه بجسده. فليس الفيلسوف

(*) – نقلا عن الفارابي أورد الحبابي هذا النص: «الفلسفة البتراء، والفيلسوف الزور، والفيلسوف المهرج، والفيلسوف الباطل، فهو الذي يشرع في أن يتعلم العلوم من غير ن يكون موطأ نحوها. فإن الذي يشرع في النظر في أن يتعلم العلوم من غير أن يكون له بالفطرة استعداد للعلوم النظرية وهي الشرائط التي ذكرها أفلاطون في كتاب السياسة، وهي أن يكون جيد الفهم والتصور للشيء الذاتي، ثم أن يكون حفوظا، وصبورا على الكد الذي يناله في التعلم، وأن يكون بالطبع محبا للصدق وأهله والعدل وأهله، غير جموح ولا لجوج فيما يهواه. وأن يكون غير شره على المأكول والمشروب، تهون عليه بالطبع الشهوات والدراهم والدنيا وما جانس ذلك، وأن يكون كبير النفس عما يشين عند الناس، ورعا سهل الانقياد للخير والعدل...». عن كتاب: «**تحصيل السعادة**، ص. 44- 45»

(43)- الحبابي، محمد عزيز، **الأعمال الكاملة**، الجزء الثاني : **الفيلسوف**، مرجع سابق، ص. 178.

ذاك الذي كان يتجول أزقة المدينة حافي القدمين(**)، ولا ذاك الذي كان يحمل المصباح في واضحة النهار، يبحث عن الحقيقة في السوق حيث عامة الناس، أو كان يقيم في برميل الحكمة (***). فخلافاً لذلك، فإن صورة الفيلسوف ترتسم معالمها من خلال الدور الكبير الذي يتوجب عليه النهوض به « وهو يعد وسائل الكفاح، وينبه وجدان المجتمع ويستخلص حقيقة عصره. وما أن ينخرط في القيام بتلك المهام من أجل تحقيق الواقع الذي يبشر به، حتى يرى نفسه مضطراً إلى تفسير تصرفه، والذود عن مواقفه. الفيلسوف رقيب المجتمع ومناضل باستمرار: يحمل علم إصلاح الفكرولوجيا التي لم تعد مطابقة للواقع الحالي، فيبرز أخطاءها والأجزاء التي تقادم عليها العهد، كما يظهر ما في فلسفته الخاصة من جديد، كما يسلح الآخرين تسليحاً أفضل في نضالهم من أجل التحرر. إنه يرفعهم من مستوى الوجدان المحض إلى مستوى الوعي المريد المحرك الفعّال لما يريد»(44). إنه مطالب بالعمل على أن تبقى فلسفته فلسفة، وأن تبلغ ما هو إنساني. ولن يتحقق له ذلك إلا إذا استخلص مذهبه من حقيقة عصره، ووعى ما هو موجود وعياً صحيحاً. والفيلسوف عندما يقوم بفهم الحياة، وشرح ما هو كائن، ووصف ما ينبغي عمله، فإنه في هذه الحالة «يصارع ويتصارع في حركة انعتاق الإنسان وخلاصه ضد معركة المادة وضد كل ما في

(**)- نقصد سقراط Socrate (470- 399 ق.م). لئن كان سقراط لم يخلف أثرا مكتوبا، فإن الصورة العامة المرسومة له وصلتنا عند طريق تلميذه أفلاطون. «والصورة الشائعة له وهو يرتدي معطفا خشنا، ويسير في الطرقات حافي القدمين مهما قسا الطقس، وكان قوي الشكيمة للغاية، في أنفه فطوسة، وفي وجهه نمنمة». عن كتاب: «طرابيشي، جورج، **معجم الفلاسفة**، دار الطليعة، بيروت، طبعة ثالثة، 2006، ص. 365».

(***)- نقصد الفيلسوف ديوجين الكلبيle cyniqueDiogène (نحو 413 - 323 ق م)، كانمؤسس المدرسة الكلبية «جريء الفكر، مستقل الرأي، لاذع الحكم، مزدريا للثروة والمراتب الاجتماعية، طالبا لحياة طبيعية ومتقشفة، حافي القدمين، لا يضع عليه سوى معطف، وقد اختار مقاما له في برميل» عن كتاب: «طرابيشي، جورج، **معجم الفلاسفة**، مرجع سابق، ص. 309».

(44)- الحبابي، محمد عزيز، **من الحريات إلى التحرر**، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2014، ص. 69.

طبيعتنا من انحرافات»[45]. فمهمة الحقيقية هي فك رموز حقائق الإنسان، وفي الوقت نفسه، الإعلان عن حقيقة الإنسان وعن حقيقة المجتمع الدولي الذي يكون مجموع البشرية[46].

حتى يُظهر الحبابي المنحنى الإنساني في دور الفيلسوف، عقد مقارنة بينه وبين العالم الفيزيائي. فهذا الأخير «يعمل على التصرف في المادة، أما الفيلسوف الشخصاني فيستهدف أكثر من ذلك: يريد أنسنة العالم، لأنه عالم الكائنات البشرية، متجاوزاً المثالية والمادية نحو فلسفة تأليفية واقعية، أي نحو تعبير صادق عن حياة لا تنفصل فيها الفكرة عن الفعل»[47]. ففي إطار الفلسفة الشخصانية تتجسد هذه الصورة العامة التي عرضها الحبابي للفلسفة والفيلسوف.

إن الحبابي، من موقعه كفيلسوف صاحب مذهب جديد، لم يكن همه كتابة تاريخ الفلسفة، أو إعادة تقييمه وإصدار أحكام حوله، ولا رسم صورة عامة لأهم الرؤى والأنساق والأطروحات التي أبدعها الفلاسفة. وإنما كان يروم أن يُسهم في الفلسفة، بأن يؤدي دوراً في حلبتها، ويترك بصمة في تاريخها. وحتى يتحقق له ذلك، فإنه جعل من واقعه الذي يعيشه سنداً لتأملاته ومشاهداته.

في سؤال المنهج عند الحبابي:

يشيد كل فيلسوف مشروعه النظري على دعامات منهجية، وآليات معرفية توجه طريقة تفكيره، وتضفي عليه طابع النسقية والاتساق الداخلي. فلا تخلو أعمال الفلاسفة من «ممارسة

(45)– الحبابي، محمد عزيز، **من الحريات إلى التحرر** ، مرجع سابق، ص. 69.
(46)- الحبابي محمد عزيز، **عالم الغد**، مرجع سابق، ص. 211.
(47)- الحبابي محمد عزيز، **عالم الغد**، مرجع سابق، ص. 15

منهجية، إمَّا وضعاً للمفاهيم، أو إنشاءً للتعاريف، أو صوغاً للدعاوى، أو تقريراً للقواعد، أو تحريراً للأدلة، أو إيراداً للاعتراضات»[48]. فالمنهج «الأورغانون» كممارسة إجرائية، يتداخل فيها اللغوي والمنطقي والمعرفي، يتوسل بها الفيلسوف تأسيساً لرؤاه وتصوراته، أو تقويماً لرؤى وتصورات الآخرين، ويستند إليها لاستشكال قضاياه وبناء أطروحاته. ويبتغى المنهج تحقيق الصرامة في الفحص النقدي للأفكار والاعتقادات لتأسيسها، أو إعادة تأسيسها على دعائم متينة.

المنهج رفع للإبهام:

اعتنى الحبابي بسؤال المنهج تنظيراً وممارسةً، بقصد مواجهة الإبهام الذي يغلف الفكر ويكتنف اللغة. وتحقيقاً لهذا القصد، وجه فكره وأعمل نظره لإيضاح مفهوم الإبهام ورفع الإبهام عنه، أو لإزاحة الإبهام عن الفكر واللغة. وحتى يتحقق له مراده، فقد عمد منهجياً إلى البحث في الدلالة اللغوية لكلمة (إبهام) منطلقاً من الجذر اللغوي (ب. ه. م) ناظراً في وجوهه الدلالية والاستعمالية ليخلص إلى أن: «الإبهام في الكلام هو ما يجعله غير يقيني، واللفظ المبهم ما له أكثر من معنى، فيفترض على سامعه أو قارئه تأويلات مختلفة. إذن، اللفظ المبهم لفظ ينقصه الوضوح؛ لأن طبيعته غير محددة. فالإبهام ملزم للغموض، ولتقارب الاحتمالات الدلالية، يحصل عنه التباس، ثم سوء فهم»[49]. من ثم يغلق الإبهام الأبواب أمام التفكير الصائب، ولا يفتحه إلا للفوضى وتناقض التأويلات، ويحول دون الوضوح واليقين. فالمفاهيم المستخدمة، عندما لا تتمتع بالوضوح المطلوب، كأن تتقاطع الدلالات في المفهوم الواحد، فإنها توسع من

(48)- طه، عبد الرحمان، **تجديد المنهج في تقويم التراث**، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بدون سنة النشر، ص. 13.

(49)- الحبابي، محمد عزيز الحبابي، **مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر**، دار المعارف، مصر، 1999، ص. 8.

دائرة الالتباس، فنصبح أمام مجموعة من «المفردات لا تسعفنا في الاقتراب مما يجري في عالم نحن معنيون بالانخراط فيه، والمشاركة في إنتاجه»[50].

يستلزم المنهج الفلسفي، في البدء، بناء المفاهيم وإيضاح دلالاتها وضبط استعمالاتها. فالمقصد الأساس للمنهج، أولا وقبل كل شيء، هو الإسهام في «معركة الوضوح والتوضيح والدقة؛ لأن اللغة الدقيقة هي للفكر الدقيق، واللغة المبهمة والتقريبية هي للعقل ارتباكٌ، وللتفكير تلعثمٌ »[51]. إن الغموض الذي يكتنف اللغة يحجب عن الفكر الرؤية الصحيحة، كما أن إبهام المفاهيم يُحدث فراغاً فكرياً، ويُعمق الحيرة في النفس، ويحول دون الإدراك السليم والشمولي للواقع. ويصدق أن إبهام النظريات يعكس إبهام المفاهيم التي بنيت عليها، والعكس صحيح، وأن غموض العبارة لا ينفصل عن إبهام الفكرة. وهكذا فإن المفاهيم المُبهمة هي تلك المفاهيم التي «تغلق الأبواب أمام التفكير، ولا تفتحها إلا للفوضى (تناقض التأويل)، وللّامحدّد..، إنها أبواب مُهرمة على الوضوح واليقين»[52].

يقود المنهج الفكر إلى الخروج من حالة الإبهام إلى حالة الوضوح، ويحقق إيضاح المفاهيم وإزاحة الضباب عن التفكير، أو يمنح العقل الجرأة على مواجهة الضبابية واللبس؛ بُغية بناء التصورات والرؤى القابلة للتحقق علمياً وعملياً. فكلما كان الوضوح؛ الذي هو أكبر الفضائل

(50)- كمال، عبد اللطيف، **المعرفي، الأيديولوجي، الشبكي: تقاطعات ورهانات**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، 2012، ص. 14.

(51)– الحبابي، محمد عزيز الحبابي، **مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر**، مرجع سابق، ص. 7.

(52)- المرجع السابق، ص. 8.

الفكرية[53]، متحققاً، كان العقل أكثر فاعلية على الفهم والتحليل، وكانت اللغة أقدر على الإيصال والتبليغ.

لن يكون بالإمكان رفع الإبهام وإزالة ضبابية الغموض واللبس، ومن ثم بناء مفاهيم واضحة، إلا عند توفر عدة شروط متلازمة فيما بينها، ترتبط بالفكر واللغة. فعلى من يريد بلورة المفاهيم الواضحة ألا يقف عند حدود ما هو عقلي، ويرفض ما يتعلق بالخيال والعاطفة والوجدان. فالوصل بين العقل والخيال والعاطفة والوجدان تميله الطبيعة الإنسانية التي تمتزج في تكوينها تلك العناصر، كما تفرضه حدود الإمكانات الذاتية للعقل. فليس كل شيء عقلي أو متوقف على حضور العقل، فهناك موضوعات تتجاوز إمكاناته، ولا يملك أن يقدم بشأنها معرفة صحيحة. وتكتمل الصورة من خلال الوعي بالوظائف الطبيعية والحياتية للغة. فبغض النظر عن التصورات اللسانية والفلسفية بخصوص العلاقة بين الفكر واللغة، والتي تتعدد وتتنوع كما أنها تتعارض بينها، فلا وجود للفكر خارج اللغة، كما لا وجود للغة خارج الفكر، أو بمعنى آخر، فإن اللغة هي حضور الفكر داخل العالم المحسوس[54]، وأن وضوح أحدهما أو غموضه هو وضوح أو غموض للآخر.

تقتضي الممارسة العملية للمنهج التقيد ببعض الضوابط التي تحقق العلمية والموضوعية، وهي نفس الضوابط التي تستشف من أعمال الحبابي في قراءاته وحواراته النقدية مع التيارات

(53)- المرجع السابق، ص. 15.

(54)– Merleau-Ponty, **Phénoménologie de la perception**, Gallimard, 1967, p 211.

والمذاهب الفلسفية المختلفة والمنتمية إلى حقب زمنية متنوعة، وفي ذلك تعبير صريح عن أصالة فكره وخصوصية منهجه. ويجوز إجمال هذه الضوابط فيما يلي[55]:

- التمسك بالنزاهة الأدبية والموضوعية، واتباع الطريقة العلمية المجردة عن كل تميز. وهذا ما يتطلب تجنب الأحكام المتحاملة والعمل على تفهم الثقافات الأجنبية.
- اعتماد أسلوب الشك النقدي بوصفه أسلوباً يضمن سلامة التفكير. فالشك كما مارسه الغزالي بوصفه عنصراً أساساً لكل يقين، وكما مارسه ديكارت بوصفه شرطاً ضرورياً لكل استنتاج منطقي، يمثل أداة من أدوات فعل التفلسف.
- التخلص من الأحكام المسبقة والمركبات النفسانية المتأصلة في النفس والعقل، والتي تحول دون استيفاء شروط البحث العلمي.
- الإيضاح والدقة في انتقاء الألفاظ، لأن الغموض يولد في الأذهان وفي العلاقات بين الشعوب سوءَ التفاهم والمنازعات.

يظهر جليا أن الحبابي في حديثه عن المنهج، لا يقاربه من منظور تقني محض، بل يلبسه لبوساً أخلاقية. وهذا المنحى هو ما قصده في عبارة جامعة: « إن البحث الموضوعي العلمي، إن لم يتخلص عند البداية من الأحكام المسبقة، لا يمكن أن يتوصل إلى نتيجة واقعية ذات قيمة، ذلك أن الأحكام الخاطئة، قد تتطور، ككل ما هو بشري، فتصبح تحاملاً وانحيازاً، بل طاقة

(55)– Lahbabi, Mohamed Aziz, **du clos à l'ouvert: vingt propos sur les cultures nationales et civilisation Humaine**, 4 ème édition, Okad (Rabat) Publisud (Paris), 1987, p18.

عاطفية عمياء، ولا يخفى أن التحيز يخون الأمانة العلمية والنزاهة الأخلاقية»[56]. وبشكل عام، فإن المنهج مسلك نظري يتصف بالاستقامة والوضوح والبيان[57].

يُعيب بعض الدارسين[*] على الحبابي أنه يتبنى منهجاً انتقائياً وتوفيقياً، حيث يجمع بين مواقف ومذاهب واتجاهات لا تجتمع، وبين عناصر لا توجد صلة بينها. بيد أنه لا يعتبر الانتقائية والتوفيقية قدحيتين؛ لأنه تُوجد العديد من الفلسفات والمذاهب والنظريات الانتقائية التي تمكنت من تحقيق النجاح. يؤسس موقفه على قناعة راسخة مدارها أن كل فلسفة تبدأ بالتأمل في الفلسفات السابقة، وكل علم يتقدم انطلاقاً مما تم التسليم به كمصادر ونظريات وافتراضات، فمن «لا يأخذ ويقتبس ويستعير، لا يمكنه أن يجدد ويتجاوز مما هو موجود، فالخلق العفوي أو الإبداع من لا شيء غير ممكن»[58]. فالتوفيقية كما مارسها الحبابي ليست عيباً ولا نقصاً يعتور نظره الفلسفي، وإنما هي منهجية قصد من خلالها إغناء فلسفته وفتحها على أنساق ومذاهب فلسفية مختلفة، وفي ذلك إشارة إلى أن الكثير من الفلسفات تلتقي مع مذهبه الشخصاني الواقعي في

(56)- الحبابي، محمد عزيز، **من المنغلق إلى المنفتح: عشرون حديثا عن الثقافات القومية والحضارة الإنسانية**، ترجمه عن الفرنسية محمد برادة، مكتبة الانجلو مصرية، الطبعة الثانية،1983، ص. 161.

(57)- النقاري، حمو، معجم مفاهيم علم الكلام المنهجية، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، الطبعة الأولى، 2016، ص. 502.

(*)- نخص بالذكر هنا الأستاذ كمال عبد اللطيف صنف الحبابي ضمن «النزعة التوفيقية: نزعة التوتر والإخفاق» أو الخطاب الفلسفي التابع والمقلد. يقول مفسرا تلك النزعة التوفيقية: «توحي أدبيات الحبابي بقدرة غريبة على الربط بين عناصر نظرية لا رابط بينها، إنها نموذج للانتقائية الفكرية في أجلى صورها، وللتدليل على ما نقول يمكن الرجوع إلى مصادر كتاب «من الكائن إلى الشخص» حيث نجده يذكر الأسماء الآتية: هيجل، ماركس، كيركيجارد، مونيي، وهو يعرض آراء هؤلاء المفكرين ويحاول أثناء عرضه بلورة رؤيته الفلسفية» عن كتاب: «كمال، عبد اللطيف، **في الفلسفة العربية المعاصرة**، دار سعاد الصباح، الكويت، الطبعة الأولى، 1992، ص. 38»

(58)- حميش، سالم، **معهم حيث هم: لقاءات فكرية**، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الثانية، 1988، ص. 172.

الدفاع عن الإنسان ومعاملته كمقولة مركزية في الفكر والعمل. وفي ذلك علامة دالة على أن الحبابي أراد أن يجعل من فلسفته مشروعاً مفتوحاً وقابلاً للتغير والتبدل على الدوام، فهو لم يكن يريد أن تكون فلسفته مكتملةً قابلة للتنصيف، ولا أن يكون له مذهبٌ يتعصب له[59]. نجد في اعتماده على التوفيقية مقدرة منهجية وشجاعة معرفية على أن يجمع بين عدة رؤى وأطروحات، تنتمي إلى أنساق ومذاهب متنوعة، ويصهرها في فلسفته مشكِّلاً منها رؤيةً موحدة ومنسجمة. كما نجد فيها دعوة أخلاقيةً للإيمان بقيم التسامح والإيمان بالاختلاف والقبول بالتعدد، هذه القيم التي أصبحت عملة نادرة بين المشتغلين بالفكر في أوطاننا.

توسع مجال المنهج:

والناظر في المتن الفلسفي للحبابي، يلفي أنه لا يقصر المنهج على التفكير العقلي الخالص، ويجد أنه يوسع مداره ليشمل السلوك العملي؛ سلوك الأفراد والمؤسسات والمجتمعات، ويقرنه بالأخلاق والاقتصاد والثقافة والسياسة. فالمنهج الواضح يُكسب العقول والأفراد الكفاءة المنهجية والنظرية على مواجهة الواقع، وعلى مجابهة المصير، وعلى الوعي بالتاريخ، وعلى التخطيط للمستقبل. فكلما اتضحت المفاهيم فستنعكس إيجابياً على البنية العقلية والنفسية للفرد، مؤلفاً أو قارئاً، وفي العقل الجمعي للمجتمعات والشعوب.

(59)- المصباحي، محمد، **جدلية العقل والمدينة في الفلسفة العربية والمعاصرة**، منتدى المعارف، بيروت، الطبعة الأولى، 2013، ص. 58.

إن ما يبدو من سياق الكلام السابق أن الحبابي يعمل على التوسع في دلالة المنهج بتعميمه على الفكر واللغة والسلوك، وبذلك فإن طموحه لا ينفصل عن خلق الاقتدار على التحرر من هيمنة الفكر الذي يمارس سلطة على المفكر فتصيب ذهنه ومشاعره بالشلل. فالمنهج هو ما يسعفنا في التحرر من الانبهار والاستلاب والتبعية للأفكار الدوغمائية، ويمنحنا القدرة على الفحص النقدي للمشاريع والرؤى، ويمكننا من مراجعة المواقف ونقد العقل. بل هو يزود الإنسان بالكفاية لمواجهة مصيره حيث يدفعه إلى التفكير العلمي الدقيق واتباع المنهج العقلاني الواضح. وكأن المنهج، هنا، هو ما يعكس رؤى الناس والمجتمعات عن التاريخ، أو عن تاريخهم (الماضي والحاضر)[60].

من أجل التدليل على هذه الممارسة المنهجية العملية يمكن أن نشير إلى القراءات النقدية التي مارسها على العديد من المشاريع الفكرية العربية، في المغرب والمشرق، والتي دونها في كتابه: «**مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر**»، كما يمكن أن نشير إلى أعماله التي خصصها للحوار النقدي مع الكثير من أقطاب الفكر الفلسفي عبر تاريخه الطويل. فالمنهج المأمول هو ما يحرر وعينا، وعي الذات ووعي الواقع من كل أشكال الهيمنة والاستلاب. فالمفكر مطالب بأن يجعل من واقعه المرجع الأساس لأعماله، والمنطلق لإعادة بناء نسق أفكاره مع الاستفادة من تجارب الآخرين.

(60)- الحبابي، محمد عزيز الحبابي، **مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر**، مرجع سابق، ص. 7.

خاتمة:

أردنا من هذه الدراسة تقديم صورة عامة على الفيلسوف المغربي محمد الحبابي، سيرته الحياتية والفكرية، فلسفته ومنهجه في التفلسف، قاصدين بذلك الدعوة إلى الاهتمام بمشروعه، والعودة إلى نصوصه للنظر فيها حواراً ونقداً وتقويماً. وإذا كنا نسجل، مؤخراً، تنامي مؤشر الاهتمام بفلسفة الحبابي على مستوى ترجمة أعماله إلى العديد من اللغات، وعلى مستوى عقد الندوات للتحاور حول فكره، فإن ذلك لم يرق إلى المستوى الذي يعيد الاعتبار لشخصه ومشروعه الذي طاله الإهمال، في الغالب، لأسباب إيديولوجية. ولهذا يبقى الرهان منعقداً على الجامعات والباحثين لمواصلة النظر في أرثه الفلسفي والأدبي، وإعادة الاعتبار لفكره، ولمواصلة التفكير فيما فكر فيه.

قائمة المراجع:

- الجابري، محمد عابد، حفريات في الذاكرة، من بعيد، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1977.
- الجابري، محمد عابد، قضايا في الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الثانية، 2003.
- الجامعي، فاطمة، من هو محمد عزيز الحبابي؟، في: مدخل إلى أعمال محمد عزيز الحبابي الأدبية والفلسفية، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى، 1986.

- جوناثان، ري، السرد والتجربة الفلسفية، في: الوجود والزمان والسرد، فلسفة بول ريكور، ترجمة وتقديم سعيد الغانمي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1999.
- الحبابي، محمد عزيز الحبابي، مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر، دار المعارف، مصر، 1999.
- الحبابي، محمد عزيز، الإنسان والأعمال، الجزء الثاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1991.
- الحبابي، محمد عزيز، عالم الغد: العالم الثالث يتهم، مدخل إلى الغدية، نقلته عن الفرنسية فاطمة الجامعي الحبابي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1991.
- الحبابي، محمد عزيز، من الحريات إلى التحرر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 2014.
- الحبابي، محمد عزيز، من المنغلق إلى المنفتح: عشرون حديثا عن الثقافات القومية والحضارة الإنسانية، ترجمه عن الفرنسية محمد برادة، مكتبة الانجلو مصرية، الطبعة الثانية،1983.
- الحبابي، محمد عزيز، من المنغلق إلى المنفتح، عشرون حديثا عن الثقافات القومية والحضارة الإنسانية، ترجمه عن الفرنسية محمد برادة، مكتبة الانجلو مصرية، الطبعة الثانية، 1973.
- الحبابي، محمد عزيز، ورقات عن فلسفات إسلامية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1988.
- حميش، سالم، معهم حيث هم: لقاءات فكرية، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الثانية، 1988.

- الدواي، عبد الرزاق، الفلاسفة والسيرة الذاتية، في: الثقافة والفلسفة: دراسات مهداة إلى الأستاذ أحمد السطاتي، تنسيق سالم يفوت، سلسلة ندوات ومناظرات، 74، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1997.
- الدواي، عبد الرزاق، محمد عزيز الحبابي مسار في الفكر والحياة، في: محمد عزيز الحبابي الشخصانية والغدية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، إعداد وتقديم كمال عبد اللطيف، الطبعة الأولى، 2015.
- طه، عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، بدون سنة النشر.
- كمال، عبد اللطيف، المعرفي، الأيديولوجي، الشبكي: تقاطعات ورهانات، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، الطبعة الأولى، 2012.
- المصباحي، محمد، جدلية العقل والمدينة في الفلسفة العربية والمعاصرة، منتدى المعارف، بيروت، الطبعة الأولى، 2013.
- النقاري، حمو، معجم مفاهيم علم الكلام المنهجية، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، بيروت، الطبعة الأولى، 2016.
- الورفلي، حاتم، الذات عين الآخر: هوية التجاوز والتجاور، ضمن، بول ريكور والفلسفة، دار الأمان، الرباط، الطبعة الأولى، 2013.
- مجلة (أوراق) العدد 53-54، يونيو 1993.

- Lahbabi, Mohamed Aziz, Doctrines et Concepts: cinquante ans de philosophie de langue française, dans, Faces et Prefaces, éditions Okad, 1991.
- Lahbabi, Mohamed Aziz, du clos à l'ouvert: vingt propos sur les cultures nationales et civilisation Humaine, 4 ème édition, Okad (Rabat) Publisud (Paris), 1987.
- Lahbabi, Mohamed Aziz, Faces et Prefaces, éditions Okad, Rabat, 1991, p.68.
- Merleau-Ponty, Phénoménologie de la perception, Gallimard, 1967.
- Ricoeur, Paul, Le mémoire, l'histoire, l'oubli, Seuil, Paris, 2000, p.556.
- Ricoeur, Paul, Le mémoire, l'histoire, l'oubli, Seuil, Paris, 2000.
- Ricoeur, Paul, Temps et récit, L'intrigue et le récit historique, tome 1, Seuil, Paris, 1983.
- Campbell, Iman, science-fiction and social criticism in Morocco of the 1970s: Muhammad Aziz Lahbabi's the Elixir of life, Science Fiction Studies, num 125 Volume 42 Part 1, March 2015.
- Wiredu, Kwasi, A Companion to African Philosophy, Blackwell Publishing, Australia, 2004.

اللجنة العلمية الاستشارية

- د. أحمد شوقي بنبين؛ الخزانة الملكية – المغرب.
- د. عزيز أبو شرع؛ جامعة ابن طفيل – المغرب.
- د. محمد لشقر؛ جامعة مولاي إسماعيل – المغرب.
- د. عبد الله الرشدي؛ مؤسسة دار الحديث الحسنية – المغرب.
- د. مراد تدغوت؛ جامعة جوته – ألمانيا
- د. المختار شاكر؛ جامعة القرويين – المغرب.
- د. مصطفى السعيدي؛ جامعة عبد المالك السعدي – المغرب.
- د. محمد مستقيم؛ جامعة محمد الأول – المغرب.
- دة. لالا عائشة عدنان؛ جامعة القرويين – المغرب.
- دة. خير النساء كيكليك، جامعة بورصا اولوداغ – تركيا.
- Dr. Jules Janssens; KU Leuven - Belguim.
- Dr. Delfina Serranos; ILC, CSIC - Spain.

مركز روافد للدراسات والأبحاث في حضارة المغرب وتراث المتوسط
Rawafed center for Studies and Researches in Maghreb Civilization and Mediterranean Heritage

مركز روافد للدراسات والأبحاث في حضارة المغرب وتراث المتوسط.

مؤسسة بحثية متخصصة في الفكر المغربي-الأندلسي والدراسات التراثية.

Rawafed Center for Studies and Research in the Maghreb Civilization and the Mediterranean Heritage.

A Research Institution Specialized in Maghreb-Andalusian thought and Heritage Studies.

Email: centrerawafed@gmail.com

centrerawafed

جميع الحقوق محفوظة © 2019